المحاضرة (01)

عُنْوَانُ المُحَاضَرَةِ: نظرية الأدب (الماهية والمفهوم)

المدةُ: ساعة

الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ليسانس، تخصص: دراسات لغوية

نظرية الأدب: (الماهية والمفهوم)

تمهيد

يحاول الدارس الأدبي المتخصص في حقل النظرية الأدبية أن يسأل نفسه، ما الذي يميز الأدب عن غيره؟ وما الذي يجعل من العمل الأدبي عملا أدبيا؟

وهذا معناه بداية عملية تصنيف المادة الأدبية عن غيرها، ويتم هذا الأمر في الأغلب بشكل آلي ومنهجي، فهناك أعمال أدبية تُفصحُ عن نفسها، مثل الرواية، المسرحية، القصة ... حيث أصبح لها حدود متفق عليها بشكل عام.

1- ماهية نظرية الأدب:

ولكن إذا حاول الدارس أن يسأل نفسه مثلا أسئلة من نوع: ما الذي يميز الأدب عن غيره؟ وما الذي يجعل من العمل الأدبي عملا أدبيا؟ فإنه سيواجه صعوبات ومشكلات متعددة؛ لأنّ الإجابة عن هذه الأسئلة البسيطة في ظاهرها، المعقدة في جوهرها تتباين من ناقد لآخر، ومن مرحلة لأخرى، فهي تعني البحث عن الخصائص الخاصة للأدب ومصدرها ومهمتها.

فهل الذي يميز الأدب عن غيره اللفظُ أم المعنى؟ الصورة الفنية أم الإطار الجمالي؟ الفكرة أم أسلوب العرض؟ أو أنّ العمل الأدبي محاكاة فنية لفظية؟ وإذا كان كذلك فما مفهوم المحاكاة وما موضوعها؟ هل هو محاكاة للظواهر الحسية أو للانطباعات الذهنية أم لكليهما؟ هناك من يقول بأن الأدب مرآة ويتردد مصطلح المرآة منذ أفلاطون وحتى أيامنا هذه، وتتباين وربما تتناقض آراء القائلين بهذا المصطلح، فهل هو مرآة للأشياء أم لعقل الأديب أم لنفسيته؟ أم مرآة للبيئة والوسط والمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه؟ ثم هل المرآة مستوية أم محدبة أم مقعرة؟ وقريبا من مصطلح المرآة يردد آخرون بأنّ الأدب صورة، لنجد أنفسنا مرة أخرى أمام خلافات بيّنة، فهل هو صورة لفعل الشخصية أو صورة لحياة الأديب، أم لانفعاله، أم صورة من صور التعبير عن الخيال، أم صورة للعلاقات الاجتماعية؟ وبعيدا عن هؤلاء وأولئك، هناك من يحاول تحديد ماهيّة الأدب من خلال ربطه بغيره من الظواهر، فيصبح جزءا من المعارف والعلوم الإنسانية، أو جزءًا

من المعارف والعلوم الإنسانية، أو جزءًا من الفن بشكلٍ عام، أو جزءًا من المعارف والعلوم الإنسانية، أو جزءًا من الإيديولوجيا، أو جزءًا من النظام الاجتماعي؛ أي يعدّ ظاهرة اجتماعية، وربما ظاهرة حضارية.

وخلافا لكل ما تقدّم هناك من يحاول أن يعرف الأدب من خلال الأداة، فالأدب فن لغوي أو لغة خيال أو كيان لغوي، جسد لغوي أو مجموعة من الجمل، وهناك من يرى أن الأدب شكل جمالي خالص، أو عمل فني بحت، أو نظام من الرموز والدلالات، التي تولد في النص وتعيش فيه، ولا صلة لها بخارج النص.

وعلى عكس هؤلاء يرى آخرون أنّ الأدب تعبير بالكلمة عن موقف الأديب من العالم الذي يعيش فيه، أو أنه أداة تعبير طبقية، أو أنه صياغة لغوية لتجربة إنسانية عميقة، أو أنه استخدام خاص للغة لتحقيق هدف ما.

كل هذه الأسئلة والتساؤلات السابقة تعكس مدى الخلافات والصعوبات الناتجة عن محاولة الإجابة عن السؤال السابق، وقد يأخذ الدارس الأدبي برأي من تلك الآراء المتعددة، لكنه في محاولته البرهنة على صحة الرأي الذي اتخذه، يجد صعوبات أخرى، أهمها المنهج المتبع في الإجابة لتأكيد صحة ما ذهب إليه، فهناك من يحاول تأكيد وجهة نظره وصحتها، من خلال تحديد منشأ العمل الأدبي؛ أي نشأته ومصدره، وهناك من يتخذ وجهة أخرى؛ إذ يركز على وظيفة العمل الأدبي، على اعتبار أنّ الوظيفة تحدّدُ الماهية، وهنا وهناك نجد الآراء المتعددة المتباينة إلى حدّ التناقض.

فهل تتحكم بنشأة الأدب قوى خارجة عن الإرادة الإنسانية والطبيعة البشرية مثل الوحي والإلهام؛ أي ربة الشعر عند اليونان القدماء وشيطانة الشعر عند العرب في الجاهلية، أم قوى مرتبطة بالإنسان، مثل غريزة حب النغم والإيقاع، أم الانفعال والنشاط العام للخيال عند الإنسان، أم اللاشعور الفردي ومخزوناته من المكبوت، أم الجمعي، أم أنه للأساطير القديمة؟ هناك من يقول بأنّ الأدب نتاج لعملية خلق حر، وعلى عكس هؤلاء يرى آخرون بأنّ الأدب نتاج لفعالية اجتماعية، وهنا تبرز أسئلة أخرى، هل الأدب لعبٌ أم عملٌ، صنعةٌ أم تخييلٌ، إبداعٌ أم خلقٌ؟

وهل وظيفة الأدب بعد ذلك إفساد الأخلاق، أم تطهير العواطف، أم إثارة العواطف وتمكين القراء من التعبير عن انفعالاتهم، أم تراه يؤدي وظيفة تتمثل في الفرار من الواقع إلى عالم آخر هو عالم العدالة الشعرية، أم على العكس تكمن مهمته في دفعنا للالتصاق بالواقع في سبيل تخطيه وتجاوزه، لبناء وقع أفضل؟

لعل كل هذه الأسئلة التي تعترض طريق الدارس الأدبي تتمحور حول قضايا ثلاث، هي: نشأة الأدب، وطبيعة الأدب، ووظيفة الأدب؛ أي مصدره وماهيته ومهمته، ولا شكّ أنّ البحث في هذه القضايا يستلزم مواقف محدّدة من الإنسان والحياة؛ لأنّ الحديث عن وظيفة الأدب مثلا يفضي بنا بالضرورة إلى الحديث عن مهمة الإنسان وعلاقته بالبشر الذين يعيشون معه وحوله، وبعبارة أخرى إنّ البحث في تلك القضايا يتطلب الإيمان أو الاستناد إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محدّدة متكاملة، حتى يوفر الباحث لأفكاره وآرائه درجة من القوة والاتساق والعمق أيضا.

وإذا ما وفّر الباحث لعمله كل هذا، وجد نفسه في ميدان متباين عن ميداني النقد الأدبي وتاريخ الأدب، ألا وهو ميدان نظرية الأدب.

2- مفهوم نظرية الأدب:

نظرية الأدب هي مجموعة من الآراء والأفكار القوية والمتسقة والعميقة والمترابطة، والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محددة، والتي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته، وهي تدرس الظاهرة الأدبية بعامة من هذه الزوايا، في سبيل استنباط وتأصيل مفاهيم عامة، تُبين حقيقة الأدب وآثاره.

لذا فإنّ كثيرا من الآراء التي تدور حول الأدب أو جانب منها، لا ترقى إلى مستوى النظرية؛ لأنها لا تستند إلى فلسفة محددة أو تفتقد إلى القوة والاتساق.

مصادر ومراجع المحاضرة:

1- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

2- عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، سبتمبر 1997.